نظريةالاعجاز القرآني والصرفة

د. السيد خليل باستان[1]

المخلص: اختلف العلماء فيما بينهم إذا كان القرآن المجيد معجزة بنفسه وذاته، أم من خارج نفسه، كما يقول أصحاب هذه النظرية: إنّ الله تعالى ضرب بقدرته على أيدي العرب وغيرهم (من الأمم) على أن يأتوا بمثله، وأنّ كل فريق يجرّ النار لقرصته، واشتدّ الصراع بقيادة إبراهيم النظّام المعتزلي (وأتباعه) الذي رفع لواء الصرفة وبين الذين حملوا لواء الاعجاز البلاغي والتكاملي والعلمي للقرآن العظيم، فمنذ القرن الثالث الهجري استمرّا لنزاع ليومنا هذا، فمن العلماء من سلك سبيل النظّام، ومنهم من عارضه بأدلّة عقلية ونقلية طول هذه الفترة، وعددهم ليس بقليل.

إنّ المهمّ في هذه المقالة هو عرض الآراء المختلفة للفريقين من أصحاب الاعجاز البلاغي وأهل الصرفة، وعلى القارئ البصير أن يحكم بما هو الصواب وما هو الخطأ. والذين قاموا بالردّ العلمي على أهل الصرفة كثيرون؛ منهم آية الله الخوئى، وآية الله معرفة، والعلامة الطبرسي، والعلامة الطباطبائي، والعلامة الاميني، وآخرون. وإنّ الشريف المرتضى وأستاذه الشيخ المفيد وزملاء المرتضى أمثال الطوسي وآخرون، هم بُراء من القول بالصرفة، وانما وجهت اليهم التُّهم من دون أدلّة مُقنعة.

كلمات المفتاحية: القرآن العزيز؛ الاعجاز البلاغي؛ الصرفة؛ براءة السيد المرتضى.

---

١. الاستاذ المشارك بجامعة العلامة الطباطبائى، كلية الادب الفارسي – فرع اللغة العربية seyedkhalil@hitmail.com

المقدمة

يُعدُّ القرآن الكريم بنفسه وذاته معجزة من حيث أسلوبه، وبيانه، وابداعه، ونظمه، وحسن بلاغته، ومعانيه الراقية، على مرّ الليالي والايام، لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، وهو معجزة للدهور والعصور، وللنبيّ محمدٍّ الرسولﷺ وللعلوم والفنون، وللجنّ والانس، و أنّه آية للأديب بلاغة وفصاحةً، وللحكيم حكمةً، وللعالم علماً، وللاجتماعي اجتماعاً وللسياسي سياسةً، وللحاكم حكماً، ولجميع الفئات درساً.

كتاب لايتغيّر بتغير الأحوال، ولايتطور بتطور العلوم والأزمان، ولاتُفنى عجائبه، ولايشمله النسخ والابدال، كتاب تحدّى بإخباره بالغيب كقوله تعالى: تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ، (هود/٤٩)، وتحدّى أهل العلم بعدم الخلاف فيه، كقوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِاللهِ لَوَجَدُوا فيه اخْتِلافاً كَثيراً (النساء /٨٢)، و... و... و.

وقال الامام عليّعليه‌السلام: واصفاً القرآن في الخطبة/١٣٣، انه كتاب (ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض) (الشريف الرضي/١٣٨٧ق /١٩٢)، ويصفه أيضاً وصفاً جميلاً دقيقاً لم يسبقه أحد الوصافين من قبل، ففي الخطبة/١٥٦، حيث يقول عليه‌السلام: فانه الحبل المتين، والنورالمبين، والشفاء النافع، والريّ الناقع، والعصمة للمتمسك، والنجاة للمتعلق. لا يعوّج فيقام، ولا يزيغ فيستعتب، ولايخلقه كثرة الردّ، وولوج السمع، من قال به صدق، ومن عمل به سبق. (الشريف الرضي /١٣٨٧/٢١٩)

ويعتقد صاحب الميزان ان: «من عجيب أمر القرآن أنّ الآية من آياته لاتكاد تصمت عن الدلالة ولاتعقم عن الانتاج، كلما ضمت آية الى آية مناسبة انتجت حقيقية من أبكار الحقائق ثم الآية الثالثة تصدقها وتشهد بها» (الطباطبائي ج١: ٧٣)

ومن المعروف أنّ العرب الذين لامثيل لهم في التاريخ ولا نظير لهم في البلاغة والبيان، وصل بهم الأمران يطلقوا اسم (العجم) على غيرهم لشدة اعتزازهم ببيانهم، ولكنّهم اضطروّا أخيراً أن يركعوا أمام القرآن معترفين بعجزهم عن الإتيان بمثله (أدباً وكمالاً وعلماًو...) ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا.

بناءً على ماتقدّم ليس للصرفة (القهر) أن يغلب على القرآن المجيد مادام فيه عناصر من البلاغة والأدب، ومن المعاني الراقية، والأساليب الرفيعة، والعلوم الدقيقة، والمناهج الظريفة، و... و... و... هدف البحث:

هو الوقوف على تيارين من الفكر الاسلامي اتجاه معجزة القرآن العزيز، وخاصة القائلين بالصرفة،

والآراء التي رصدت نقاط ضعف هذا التيار، وأضفنا إليها عدّة نقاط ضعف أخرى (حسب وسعنا)، سيقف القارئ عليها خلال التحقيق، وأقول إنّ الباب مفتوح على مصراعيه لأصحاب الفكر الثاقب في البحوث العلمية للصرفة والإعجاز. وكان منهجنا في هذا التحقيق قائم على التحليل والتوصيف.

وبالإضافة إلى ذلك كلة، نرغب في التعرف على تيار معاد مراوغ من الخرّاصين الذين بالغوا في عدائهم لأهل البيت عليهم السلام في حقول العلم والمعرفة، وأعني بالذات العلوم القرآنية ومسألة الصرفة خاصّة، حيث ألصقوا التُهم بشيوخ مذهب اهل البيت عليهم السلام بعدما عجزوا أن ينتقصوا من أئمتهم الطيبين الطاهرين عليهم السلام .

سابقة البحث

تزامن بحث الإعجاز القرآني منذ نزوله والى يومنا هذا وسيستمرّ مدى الأزمان، حيث ساهم كبارالعلماء الإسلاميّين، ببذل الجهود والطاقات والافكار لاثبات الإعجاز البلاغي للقرآن العظيم في مؤلّفاتهم المختلفة من الفرق الاسلامية المتعدّدة، فمن الشيعة: «محمد بن الحسن الشيباني، والشيخ المفيد، والشريف الرضي، والشيخ الطوسي، وابوالفتوح الرازي، والشيخ الطبرسي، والقطب الراوندي»، وآخرين ذكرهم صاحب تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام (الصدر/بلاتا:٣٢٢)، فليراجع. وأما من اهل السنة كما جاء في الإتقان فهم: «الخطابي والرماني والزملكاني والرازي وابن سراقة والباقلاني» وغيرهم. (السيوطي/بلاتا /ج ١٤٨:٢)

واما القول بالصرفة جاء على لسان زعيم المعتزلة في عصره أبوإسحاق إبراهيم النظّام وتبعه رجال من مذهبة أمثال عيسى بن صبح، وهشام بن عمرو الفوطي، ومن الاشاعرة محمد بن أحمد، والفخر الرازي، وابن كثير، وأبو إسحاق الاسفرايني، والراغب الاصبهاني، وأبو الحسن الماوردي، والجويني، والغزالي، وغيرهم، ومن الشيعة على ما قيل: الشيخ المفيد، والشريف المرتضى، والطوسي، والخفاجي وغيرهم.

لقد تصدّى لهذا الضعف الفكري من العلماء السابقين: الخطابي والباقلاني والقرطبي والرمّاني وغيرهم، ومن المعاصرين آية الله السيد ابوالقاسم الخوئى (ره)، وآية الله الشيخ محمد هادي معرفة (في التمهيد) وآخرين، حيث دوّنوا آرائهم في كتبهم المؤلفة في هذا المضمار، وتجد العشرات من المقالات المؤلفة في الشبكة العنكبوتية.

الفرضيات

إنّ الصرفة تمتلك في ذاتها العجز والكسل و... وليس لأصحابها أدلّة علمية مُقنعة سوى البناء على استنتاجات باطلة، كما صرح بذلك الجاحظ تلميذ النظّام قائلاً: «انّما عيبه (النظّام مؤسس الفكرة) الذي لا يُفارقه سوء الظن وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذي لا يوثق بمثله...ولكنّه كان يظنّ الظنّ ثم يقيس عليه، وينسى أنّ بدء أمره كان ظناً، فاذا أتقن ذلك وأيقن، وجزم عليه»، (موقع ملتقى اهل التفسير)، بينما القول بالاعجاز البلاغي فيه نشاط وحيوية وتدبر و... يتطوّر بتطوّر العصور، وبما تنتجه العقول من ذوي أصحاب العلوم.

ثم إنّ الذين نسبوا الصرفة للشريف المرتضى (ره) وشيخه المفيد وزملائه الكرام، ولعلماء أهل البيت عليهم السلام على مدى التاريخ، ما هم الّا من الذين يقولون بما لايعلمون حِقداً وحسداً، وليس لديهم وثائق مكتوبة وأدلّة إثباتية، وذلك لما لم يكن لهم القدرة على الانتقاص من أئمة أهل البيت عليهم السلام التجؤوا إلى أتباعهم، فاتّهموهم ظلماً وعدواناً وبهتاناً وزوراً.

محاور البحث

يدور البحث حول محورين أساسيين، الحديث الأول حول نظرية الاعجاز البلاغي والبياني للقرآن الكريم، وبيان الآراء المختلفة، والمبادئ المطروحة في هذا الباب من دون الإشارة الى الكمال والاعجاز العلمي و...، الثاني التعرّف على نظرية الصرفة ومبانيها، ثم الوقوف على آراء الناقدين لها...

اولاً: نظرية الاعجاز؛ وتحتوي على مواضيع مختلفة منها:

وقفة مع الجرجاني

هو المولود في جرجان إحدى محافظات ايران الإسلام، أوائل القرن الخامس الهجري، عاش حياته فيها، وتوفي سنة ٤٧١ق. يعدُّ أباً للبلاغة العربية، وأستاذاً في النحو والأدب والنقد، اشتهر صيته في الآفاق، قصدته العلماء من أرجاء البلاد، وله مؤلفات كثيرة، من أشهرها: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز.

نظرية النظم

كما أشار اليها الجرجاني بقوله: (معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف، وللتعلق فيما بينها طرق معلومة، وهو

لا يعدو ثلاثة أقسام تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما). (الجرجاني/١٤١٥ق/١٥)

ركائز نظرية الجرجاني للإعجاز القرآني

١. إنّه لا فضل بين الألفاظ ومعناها، ولابين الصورة والمحتوى، ولابين الشكل والمضمون في النص الأدبي.

٢. إنّ البلاغة في النظم لافي الكلمة مفردة ولا في مجرد المعاني، والباحث عن الإعجاز عليه أن يتتبعه في النظم وحده.

٣. إنّ النظم هو توخي معاني النحو وأحكامه وذوقه ووجوهه في ما بين معاني الكلم.

٤. أخذ عبد القاهر في كتابه الخالد "دلائل الإعجاز" يعرض لوجوه تركّب الكلام وفق أحكام النحو مستنبطاً الفروق بينهما، عارضاً لأسرار المزية والحسن والبلاغة فيها.

تعريف الاعجاز

لغة: قال الطريحي الاعجاز هو: (أن يأتي الإنسان بشئ يعجز خصمه ويقصر دونه، قوله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ. (التوبة/٢) (مجمع البحرين/ بلاتا/٢٩٨) إذن العجز: هو فقدان القدرة.

اصطلاحاً: جاء في الاتقان: «هو أمر خارق للعادة (المطابق للدعوى) مقرون بالتحدّي، سالم عن المعارضة». (السيوطي/بلاتا/ ج٢ /١٤٨) وقيل هو: أن يأتي المدّعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز عنه غيره شاهداً على صدق دعواه، مع إمكان صدق هذه الدعوى بحكم العقل، أو النقل الثابت عن نبيّ أو إمام معصوم. إذن أرى أنّ التعريفان مكمّلان بعضهما الآخر، وانّ الاستطاعة لاتنعدم هنا، خلافاً لما في الصرفة من نفي القدرة منذ البداية.

خلاصة القول: يتبادر الى الذهن من خلال المعنيين، إنّ ظهور الضعف جاء من بعد القوة، لا منذ البداية.

واعلم أنّ الاعجاز نوعان: حسّيّ وعقليّ، فالحسيّ كان من نصيب الأمم الماضية كعصا موسى عليه السلام، وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام لقوم بني اسرائيل، والعقليّ كان من نصيب أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وانقرضت المعجزات الحسّية بانقراض التاريخ، ومازالت المعجزة العقلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باقية أبد الدهر، وما بقى للعقل من سلطان، وللبصيرة من هواة، وبناءً على هذا ليس لأحد من البشر بالغاً ما بلغ من الفصاحة والبلاغة أن يأتي بمثله، أو يفكّر في محاكاته، فهو آية الله الدائمة وحجته الخالدة أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ليبلغه قومه الذين هم فحول اهل الفنّ والبلاغة، و أمراء أهل الكلام،

وزعماء الحوار، وهم الحراص على التساجل، وأهل الكبرياء والأنفة، وذوي الذكاء والفطنة و.. و.. فبهرهم بيانه وأذهلهم افتتانه، وشتت غبار كلّ سابق، ولم يتجاوز الحدّ الخارج من قوى الفصحاء، ولم يقع مطامح أعين البصراء، وان لم يكونوا بهذا المستوى العالي، فكيف يمكن للقرآن الكريم أن يطالبهم بما لاطاقة لهم؟ والحال أدركوا معانيه وأساليبه و.. و..، لانّه نزل بلسانهم العربي الفصيح. طبعا هذا بالنسبة إلى الجانب البلاغي، وأما بالنسبة إلى الجانب الكمالي والاعجاز العلمي فله حديث آخر.

التحدي بالبلاغة

لقد أفرد هذا العنوان صاحب الميزان في تفسيره: «إنّ فيها التحدي بالنظم والبلاغة، فإنّ ذلك هو الشأن الظاهر من شؤون العرب المخاطبين بالآيات يومئذ،.....، و وطئوا موطئاً لم تطأ أقدام غيرهم في كمال البيان وجزالة النظم ووفاء اللفظ ورعاية المقام وسهولة المنطق، وتحدّى عليهم القرآن بكلّ تحدٍّ ممكن مما يثير الحمية و... وحالهم في الغرور ببضاعتهم والاستكبار عن الخضوع للغير في صناعتهم.... فلم يجيبوه إلّا بالتجافي، ولم يزدهم إلّا العجز، ولم يكن منهم إلّا الاستخفاء والفرار»، (الطباطبائی/۱۳۹۳/ م۱: ۶۸).

التدرّج بالتحدي

يرى صاحب الاتقان مستدلّاً بالآيات القرآنية وبأسلوب حكيم كمايلي:

۱.«تحدّاهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول سنين فلم يقدروا كما قال تعالى: فَلْيَأْتُوا بِحَديثٍ مثله إِنْ كانُوا صادِقِينَ. (الطور/۳۴)

۲. تحدّاهم بعشر سور منه في قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراه قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِسُوَرٍ مثله مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ الله إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. (هود/۱۳)

۳. ثم تحدّاهم في قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراه قُلْ فَأْتُوا بِسُورَة مثله وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ الله إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (یونس/۳۷)،... فلما عجزوا عن معارضته والاتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء والبلغاء فيهم، نادى عليهم باظهار العجز، واعجاز القرآن فقال تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمثله وَلَوْ كانَ بَعْضُهم لِبَعْضٍ ظَهيراً (الاسراء/۸۸)...، بل عدلوا إلى العناد تارة والى الإستهزاء أخرى، فتارة قالوا سحر، وأُخرى شعر، وتارة قالوا أساطير الأولين، كلّ ذلك من التحيّر والانقطاع»، (السیوطي/بلاتا/ ج۲: ۱۴۹)

المعجزة البلاغية والتاريخ

سجّل لنا التاريخ وقائع ومواجهات كثيرة، ومواقف عدائية شديدة، صدرت من الكفار والمشركين أولى القوة والبأس الشديد، ضدّ رسول السلامﷺ وصاحب الخلق العظيم، الذي ما كان يملك حولاً ولاقوة في بداية الدعوة، سنعرض هنا بعض الحوارات التي جرت في صدر الاسلام، طبقاً لما ذكره المؤرخون:

١. إنّ ما حدث للشاعر العربي لبيد بن ربيعة، الشهير ببلاغة منطقه، وفصاحة لسانه، ورصانة شعره، عندما سمع أنّ محمداً يتحدى الناس بكلامه، «قال بعض الأبيات رداً على ما سمع، وعلّقها على باب الكعبة، وكان التعليق على باب الكعبة إمتيازاً لم تدركه إلا فئة قليلة من كبار شعراء العرب، وحين رأى أحد المسلمين هذا أخذته العزة، فكتب بعض آيات الكتاب الكريم، وعلّقها إلى جوار أبيات لبيد، ومرّ لبيد بباب الكعبة في اليوم التالي ولم يكن قد أسلم بعد، فأذهلته الآيات القرآنية حتى انه صرخ من فوره قائلا: والله ما هذا بقول بشر، وأنا من المسلمين». (خان/ ١٣٩٠/١٨٥) بل إنّ الأمر اشتدّ عليه صعوبة إلى حدّ لم ينطق بالشعر من بعد اسلامه كما نراه في هذا الحوار:«قال له عمر بن الخطاب: أنشدني من شعرك، فقرأ سورة البقرة، وقال ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علّمني الله سورة البقرة»، (ابن قتيبة/١٩٠٢/١٤٨).

٢. جاء في سيرة محمد بن إسحاق (ملخّصاً): إنّ عتبة بن ربيعة كان سيّداً في قومه، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول اللهﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلّمه، وأعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها...فقال يا ابن أخي إنّك منّا.. وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم....، قال الوليد: إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً، سوّدناك علينا،... وإن كنت تريد ملكاً، ملّكناك علينا.... قال رسول اللهﷺ: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع منّي، قال: أفعل، قال رسول اللهﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون.... فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلمّا جلس إليهم، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: اني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قطّ، والله ما هو بالشّعر، ولا بالسّحر، ولا بالكهنة، يا معشر قريش! أطيعوني وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ،.... قالوا قد سحرك والله يا أبا الوليد

بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

٣. إنّ جماعةً من الملاحدة والزنادقة أزعجهم تأثير القرآن الكبير في عامة الناس، فقرّروا مواجهة تحدي القرآن، واتّصلوا لاتمام خطّتهم بعبدالله بن المقفّع الذي يقول: حفظت أربعين خطبة للامام علي عليه السلام، ففاضت ثم فاضت، «وكان أديباً كبيراً، وكاتباً ذكياً، يُعتدّ بذكائه، فقبل الدعوة للقيام بهذه المهنة... وأخبرهم أنّ هذا العمل سوف يستغرق سنة كاملة، واشترط عليهم أن يتكلفّوا بكلّ ما يحتاج إليه خلال هذه المدة...ولما مضى على الاتفاق نصف عام، عادوا اليه، وبهم تطلع إلى معرفة ما حقّقه أدبيهم لمواجهة تحدّي رسول الاسلام، وحين دخلوا غرفة الاديب الفارسي الأصل، وجدوه جالساً والقلم بيده وهو مستغرق في تفكير عميق، وأوراق الكتابة متناثرة أمامه على الأرض، بينما امتلأت غرفته بأوراق كثيرة كتبها ثم مزقها.. اعترف أمام اصحابه والخجل بادياً على وجهه والندم والحسرة والعجز جارٍ على لسانه». (خان /١٣٩٠/١٨٧)

٤. قيل: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم على يديه، فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأحد اصحابه: علّمه القرآن، فبدأ بتعلميه سورة الزلزال، فلما بلغ إلى قوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّة خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّة شَرًّا يَرَه (الزلزال/٦ -٧)، فقال الأعرابي: كفاني كتاب الله، ثم غادر المكان، فأُخبر رسول صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لقد فقه الرجل، وما ذلك إلّا أن اندمجت البلاغة والفصاحة بالمعاني العالية واتّخاذ العمل الصالح منهجاً في حياته.

وما مسيلمة وابن المقفع والمعرّي وغيرهم قد تعاطوها (الاعجاز البلاغي) فلم يأتوا إلّا بما تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع. (السيوطي/بلاتا/ ج٢: ١٥٢)

تأمّلات في آيات التحدي

إنّ المتدبر في آيات التحدي واقوال المفسّرين سيجد أنّ الاعجاز جرى في ألفاظ ومعاني الكتاب الحكيم من دون الاشارة إلى الصّرفه، مستدلّين بما كان للعرب من ثقافة بلاغية وبيانية رفيعة، وانّهم الأمّة الوحيدة في التاريخ سلكت هذا المسلك، وجئنا هنا ببعض الأقوال كشاهدٍ على ما ندّعيه، واليك التّفاصيل:

ألف: قوله تعالى: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَة مِنْ مِثْلِه وَادْعُوا شُهداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّه إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَة مِنْ مِثْلِه وَادْعُوا شُهداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّه إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فإن لَمْ تَفعَلُوا وَلَن تَفعَلُوا فاتّقُوا النّارَالتِي وَقُودُها النّاسُ

والحِجَارة أُعدَّت للكافِرِينَ. (البقرة/٢٣-٢٤)

معاني المفردات: الريب: الشك، قال الراغب الاصبهاني: أن تتوهّم بالشئ أمراً ما فينكشف عمّا تتوهّمه (المفردات/ بلاتا:٢٠٥)، وجاء في الكشاف: «انه ما نفى أنّ أحداً لايرتاب فيه،... وانّما عرّفهم الطريق إلى مُزيل الريّب -الاتيان بسورة مثله -... ، والسورة: مجموعة من الآيات التي تحتوي على أسمى البلاغات البيانية وأفضل المعاني الفكرية وأجناس الفوائد و.. و..، كاحتوى سورة المدينة على ما فيها، ثم إنّ للريب استعمالات خاصّة في القرآن المجيد اذ تمسّ صميم العيقدة، مِن البعث والنشور، والنبوة، والكتاب المنير، ومستقر الايمان (القلوب)، ففي كل هذه الموارد نفى القرآن الريب بشدة بواسطة لا النافية للجنس نفياً مطلقاً، عاماً، كلياً»، (الزمخشري/١٤١٤/ م ١:٣٤).

فاتوا: لقد استعمل القرآن لفظ الاتيان هنا، فما هو معناه؟ ففي الاتيان مِن السهولة ما ليس في المجئ، ويستخدم في الخير و الشرّ، وفي الأعيان والأعراض، وفي العبادات خاصّة في دفع الزكاة، فالاتيان بالسورة في هذه الآية طبقاً لهذا المعنى كان أمراً سهلاً عليهم، ولاصعوبة ولا مشقّة في ذلك.

بيان معنى الآية

دعاهم وهُم الجمّ الغفير، وأصحاب الذوق السليم، بإتيان سورة ولم يحدّدها لهم، صغيرة كانت أم كبيرة، «وأراد بالشهداء هنا المساهلة وإرخاء العنان للذين هو وجوه المشاهد وفرسان المقاولة والمناقلة، تأبى عليهم الطباع، وتجمح بهم الإنسانية والأنفة أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحّة الفاسد البيّن عندهم فساده واستقامة المحال الجلي في عقولهم إحالته... وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم وانخذالهم». (باختصارعن الكشاف/١٤١٤/ م١:صص٩٦-١٠٠)

وأما قوله تعالى: فإن لّم تَفعَلُوا وَلَن تَفعَلُو.... يقول صاحب الكشاف: «لِمَ لا يستعمل اذا الذي للوجوب دون إن الذي للشّكّ، قال: إنّه كان العجز قبل التأمّل كالمشكوك عندهم لاعتمادهم على فصاحتهم، وان لن تفيد النفي مستقبلاً وتفيد التوّكيد والتشديد، وقوله تعالى: فاتّقوا النّار، لأن من يتّقي النار يترك المعاندة»، (الزمخشري/١١٤١٤/ م ١: ١٠١)، وكذلك يراه صاحب مجمع البيان حيث يقول: إنّ الله تعالى تحدّى بالقرآن وببعضه، ووجه الاستدلال بها أنّه تعالى خاطب قوماً عُقلاء فُصحاء قد بلغوا الغاية بمثله أو ببعضه، ويستمرّ قائلاً: «إن كان هذا كلام محمد فأتوا بسورة من مثله، لأنّه لو كان كلام البشر لتهيأ لكم - مع تقدّمكم في البلاغة والفصاحة- الإتيان بمثله أو بسورة منه، مع قوّة دواعيكم»، (الطبرسي/١٣٧٩/ م١:٦٣). وهكذا يرى صاحب الميزان حيث يقول: «وفيها أنّ التحدي

بالنظم والبلاغة، فإنّ ذلك هو الشأن الظاهر من شؤون العرب المخاطبين بالآيات، فالتاريخ لا يرتاب أنّ العرب العرباء بلغت من البلاغة في الكلام مبلغاً لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدمة عليهم والمتأخرة عنهم.... وقد تحدّاهم القرآن بكلّ تحدٍّ ممكن مما يثير الحميّة ويوقد نار الانفة والعصبيّة»، (الطباطبائي/١٣٩٣/ ج١: ٦٨). ويرى صاحب كتاب الاسلام يتحدى: «انه أغرب تحدٍّ في التاريخ، واكثر اثارة للدّهشة، فلم يجرء أحد من الكتاب في التاريخ الانساني –وهو بكامل عقله ووعيه – أن يقدّم تحدّياً مماثلاً،.... ولكن حين يُدعى أنّ هناك كلاماً ليس في إمكان البشر الاتيان بمثله، ثم تُخفق البشرية على مدى التاريخ في مواجهة هذا التّحدي، حينئذ يثبت تلقائيا انّه كلام غير انساني، وانّها كلمات صدرت من صميم المنبع الالهي». (خان/١٣٩٠/:١٨٥)

باء: قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراه قُلْ فَأْتُوا بِسُورَة مثله وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ الله إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (يونس/٣٧). يرى صاحب الكشّاف في تفسيرة: فأتوا أنتم على وجه الافتراء (بسورة مثله) فأنتم مثلي في العربية والفصاحة، ومعنى (بسورة مثله) أي شبيهة به في البلاغة وحسن النظم، (الزمخشري/١٤١٤/ م٢: ٣٤٧)، وكذلك يرى صاحب مجمع البيان في تفسيره : «فأتوا.. أي مثله في البلاغة لأنّكم من أهل لسانه، فلو قدر الرسولﷺ على ذلك لقدرتم أنتم أيضاً علية. فإذا عجزتم عن ذلك فاعلموا أنّه ليس من كلام البشر وانّه مُنزلٌ من عندالله عزّ اسمه». وقال صاحب مجمع البيان في تفسير قوله تعالى: إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ، فيه غاية التحدي والتعجيز»، (الطبرسي /١٣٧٩/م٣: ١١٠). ثم انظر الى رأي صاحب الميزان لتفسير هذه الآية حيث يقول: «إنّ الآية تشير إلى معنيين، الأول: انّ التحدّي لم يكن بسورة معّينة، لأنهم لم يرموا الرسول بالافتراء ببعض القرآن بل جميعه، الثّاني: انّ التحدّي لم يكن فقط ببلاغة القرآن وفصاحته، بل لما فيه من صفة الكمال ونعت الفضيلة...»، (الطباطبائى /١٣٩٣/ج١٠/ ٦٤).

جيم: قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراه قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِسُوَرٍ مِثْلِه مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُون الله إِنْ كُنْتُمْ صادِقِين (هود/١٣). يبدو أنّ هذه الآية تشبه السّابقة مع فارق في عدد السور المطلوبة. يرى صاحب مجمع البيان في تفسير الآية: «أولاً: ليس التّحدي في هذه الآية من قبل البلاغة والنظم فحسب.... وانّما التحدي عامّ يشمل على جميع ما تضمّنه القرآن الكريم من معارف حقيقية...» (الطبرسي/ ١٣٧٩/م٣: ١٤٧).

ثانياً: لو كان جهة الإعجاز غير البلاغة والفصاحة والنظم، لما قنع في المعارضة بالافتراء

والاختلاق.

ثالثاً: والمثل المذكور في الآية لا يجوز أن يكون المراد بمثله في الجنس، لأنّه مثله في الجنس يكون مكانيةً فلا يقع بها التّحدي.

رابعاً: إذا قيل لهم افتروا أنتم مثل هذا القرآن وادحضوا حجّته، وذلك أيسر وأهون عليكم من كلّ ما تكلّفتموه، فعدلوا عن ذلك وصاروا إلى الحرب والقتل وتكلّف الأمور الشاقّة، فذلك مِن أدلّ الدّلائل على عجزهم.

خامساً: فإن قيل لِم ذُكر التحدّي مرة بعشر سور ومرّة بسورة ومرّة بحديث مثله، فالجواب: إنّ التحدّي إنّما يقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظوم الكلام، فيجوز أن يتحدّى مرةً بالأقلّ ومرّة بالأكثر»، (الطبرسي/١٣٧٩/ م٣: ١٤٧).

دال: قوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا الْقُرْآنِ لايَأْتُونَ بِمثله وَلَوْ كانَ بَعْضُهم لِبَعْضٍ ظَهيراً (الاسراء:٨٨). إنّ التحدي بجميع القرآن من صفات الكمال، الراجعة الى لفظه ومعناه، لا بفصاحته وبلاغته وحدها. و يرى صاحب مجمع البيان: «إن اجتمعت الإنس والجنّ متعاونين متعاضدين على أن ياتوا بمثل هذا القرآن في فصاحته وبلاغته ونظمه... في الطبقة العليا من البلاغة والدرجة القُصوى مِن حسن النظم، وجودة المعاني، وتهذيب العبارة، والخلوّ من التناقض.... لعجزوا عن ذلك» (الطبرسي/١٣٧٩/م٣: ٤٣٨). وانظر إلى رأي صاحب الميزان الذي يقول: «انّ التّحدي باقٍ وانّ العرب العرباء أعلام الفصاحة والبلاغة انقرضوا، ولكن القرآن على اعجازه بنفسه باقٍ ليوم القيامة»، (االطباطبائي /١٣٩٣/ج١٣: ٢٠١). فمن خلال هذه النصوص وامثالها ليس للقائلين بالصرفة محلّ من الإعراب.

ثانياً: نظرية الصرفة، وفيها امورمنها ما يلي:

النظّام في سطور

هو أبوأسحاق ابراهيم بن يسار، مولى آل الحارث بن عباد الصبعي، بصريّ المولد والمنشأ، معتزليّ الفكر، متكلّم حادّ في ذكائه، من تلامذة الخليل بن احمد، ابن أخت أبي الهذيل العلّاف شيخ المعتزلة، المتوفى سنة ٢٢٤، يصفه الجاحظ بسعة العلم والثقافة، وقيل انّه كان حافظاً للقرآن والانجيل والتوراة والمزاميرو كثير من الشعر العربي، ويُعدّ من كبار فلاسفة عصره، وأوحديّ دهره، متّهم بالفسق والفجور من قبل مخالفيه،... باني نظرية الصّرفة التي خالفها المعاصرون له، واللّاحقون من بعده.

وقبل البدء بالحديث حول نظرية الصرفة، لابدّ من الوقوف على تعريفها:

لغةً: الصرف هو ردّ الشئ من حالة الى حالة، او ابداله بغيره (الراغب الاصبهاني/بلاتا/٢٧٩)، وقيل الكفّ والمنع و...، على ما في مجمع البحرين.

اصطلاحاً هو: ان الله صرف العرب عن إجابة التّحدي الربّاني والاتيان بمثل القرآن الكريم رغم قدرتهم على ذلك (موقع ملتقى اهل التفسير). وبعبارة أخرى إنّ إعجاز القرآن أتى بامر خارج عن ذات القرآن.

معاني الصرف في القرآن الكريم

استخدم القرآن المجيد الصرف على وجوه مختلفة، نذكرمنها بإيجاز:

١. «صرف بمعنى وجّه، قوله تعالى: وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ (الاحقاف/٢٩) أي وجّهنا اليك.

٢. صرّف: بيّن، قوله تعالى: وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ في هذا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ (الاسراء/٨٩)، اي بيّنا.

٣. صرّفنا: قسمنا، قوله تعالى: ولَقَدْ صَرَّفْناة بَيْنَهم لِيَذَّكَّرُوا(الفرقان/٥٠) أي قسمنا المطر عاماً فعاماً.

٤. صرف: أمال (أضلّ وأزاغ)، قوله تعالى: صَرَفَ الله قُلُوبَهم (التوبة/١٢٧) أي أماله الله.

٥. الصّرف: الدفع، قوله تعالى: رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهنَّمَ (الفرقان/٦٥) اي ادفع.

٦. صرف: عدل، قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ يُجادِلُونَ في آياتِ الله أَنَّى يُصْرَفُونَ (غافر/٦٩) أي يعدلون»، (الدامغاني/١٩٧٠/٢٧٩)، ومعاني أخرى موجودة في مجمع البحرين.

وبالنظر الى هذه المعاني المختلفة (من الإرسال والتبين والتقسيم والاضلال والدّفع والعدول) الموجودة في القرآن، هناك قاسم مشترك بين هذه المعاني. ألا وهو القوة الباطنية النابعة من العنف والشدّة والصلابة لمفهوم الكلمات، فكيف تناسب هذه المعاني والدعوة الاسلامية قائمة على اللّين؟

خلاصة نظرية الصرفة النظامية

الكلام طويل ومفصّل، البعض منه منسوب للنظّام نفسه، والآخر صريح رأيه أو منقول عن تلامذته، واليك الملخّص كما يلي:

١. إعجاز القرآن في إخباره بالغيب، لابنظمه، بل كان للعرب القدرة أن يأتوا بأفضل منه.

٢. إعجازه في الصّرفة، ولولا الصّرفة لأتى العرب بمثله.

ومنشأ الفكرة عند النظّام، هو أنّه تأثّر بكتاب الهنود المسمى ب (الفيدا)، وهو مجموعة شعرية ل (براهما)، يدّعون لها الإعجاز، وعدم قدرتهم على الإتيان بمثلها بلاغةً ومحتوىً، وهذه الفكرة

دخلت على العالم الاسلامي يوم انتشرت الترجمة من اليونان والهند و.. ابان العصرالعباسي، وقيل إنّ النظّام كان أيام شبابه، له علاقة وثيقة ببعض الفِرق الهندية كالسمنية، الفرقة البوذية التي ترى العالم قديم، وأزلية الظّلمة والنور...

الموافقون والمخالفون لنظرية الصرفة

وأما الموافقون للصّرفة فهم جمّ غفير نكتفي بذكر أسمائهم، فمن المعتزلة: عيسى بن صبح المكنّى بأبي موسى المردار، وعباد بن سليمان الصخري، والقاضي هشام بن عمرو الفوطي، وأبوإسحاق النصيبي. ومن الأشاعرة: أبو الحسن الأشعري، والفخر الرازي، والحافظ ابن كثير، وأبواسحاق الاسفراييني، وأبو الحسن الماوردي، وإمام الحرمين الجويني، وأبو حامد الغزالي. ومن الإمامية من نُسب إليهم الصرفة، الشيخ المفيد، والشريف المرتضى، ونصيرالدين الطوسي، وابن سنان الخفاجي.

وأما الذين تصدّوا للصرفة، فعددهم ليس بقليل، فمن المعتزلة وعلى رأسهم: القاضي عبد الجبار الذي انتقد القائلين بالصّرفة أشدّ الانتقاد، معتبراً هذه النظرية تطعن في القرآن الكريم من حيث بلاغته المعجزة، ومن حيث ثبوته أو ثبوت بعض آياته،... وهو يرى أنّ الصّرف لهم عن التحدي هو أمر داخلي بحيث يشعر صاحبه باليأس والانصراف، خلافاً لما يقوله النظّام بأنّه أمر خارجي، والحديث مفصل من قبل القاضي عبد الجبار، فمن شاء فليراجع. (موقع ملتقى اهل التفسير)

ويرى صاحب الإتقان فساد القول بالصرفة بدليل: «قل لئن اجتمعت الانس والجنّ – الآية، فإنّه يدلّ على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز المولى مما يحتفل بذكره... وأيضاً فيلزم من القول بالصرفة زوال الاعجاز بزوال زمان التّحدي، فخلّوا القرآن من الاعجاز، وفي ذلك خرق لاجماع الأمّة، إنّ معجزة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العظمى باقية، ولا معجزة له باقية سوى القرآن....» (السيوطي/بلاتا /ج٢: ١٥١).

وللعلامة صاحب الميزان في تفسيره كلام يلفت الانتباة إليه، إنه يذكر معنى الصرفة وماهيتها، ثمّ يستدلّ بفساد هذا الرأي، وعدم الاعتماد عليه لفقدان الأدلّة العلمية والمنطقية، وإليك التفاصيل: «معنى الصرفة: إنّ الإتيان بمثل القرآن أو سور او سورة واحدة منه محال على البشر، لمكان آيات التحدي وظهور العجز من أعداء القرآن منذ قرون، ولكن لا لكون التأليفات الكلامية التي فيها في نفسها خارجة عن طاقة الانسان...، بل لأنّ الله سبحانه يصرف الانسان عن معارضتها والاتيان بمثلها بالإرادة الالهية الحاكمة على إرادة الانسان حفظاً لآية النبوة ووقاية لحمى الرسالة. وهذا قول

فاسد لا ينطبق على ما يدلّ عليه آيات التحدي بظاهرها لقوله: قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مثله مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ الله إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ الله (هود/١٣-١٤)، فإنّ الجملة الأخيرة ظاهرة في أنّ الاستدلال بالتّحدي إنّما هو على كون القرآن نازلاً، لا كلاما تقولّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و...وأخيرا يقول (ره): فما ذكروه من أنّ إعجاز القران بالصّرف كلام لا ينبغي الركون اليه.» (الطباطبائى/١٣٩٣ /ج١: ٧٠)

وللمرجع الديني الأعلى السيد أبو القاسم الخوئي (ره)، آراء يُفنّد بها القول بالصرفة من وجوه:

١. لوكان إعجاز القرآن بالصرفة، لوجد في كلام العرب السّابقين مثله، قبل أن يتحدّى النبيّ البشر ويطالبهم بالاتيان بمثل القرآن، ولو وجد ذلك لنقل وتواتر لكثرة الدّواعي إلى نقله، واذا لم يوجد ولم ينقل، كشف ذلك عن كون القرآن بنفسه إعجازاً إلهياً، خارجاً عن طاقة البشر.

٢. قالوا (أصحاب الصّرفة) أنّ العارف باللغة العربية، قادر على أن يأتي بمثل كلمة من كلمات القرآن، واذا أمكنه ذلك امكنه أن يأتي بمثل القرآن، لأنّ حكم الأمثال فى ما يجوز وفى ما لا يجوز واحد. الجواب: إنّ هذه الشبهة لا تليق بالذّكر، فإنّ القدرة على الاتيان بمثل كلمة من كلمات القرآن، بل على الاتيان بمثل جملة من جملاته، لا تقتضي القدرة على الاتيان بمثل القرآن، أو بمثل سورة من سوره، فإنّ القدرة على المادة، لا تستلزم القدرة على التركيب. ولهذا لا يصحّ لنا أن نقول: إنّ كل فرد من أفراد البشر قادر على بناء القصور الفخمة، لأنّه قادر على وضع آجرة في البناء... وكأن هذه الشبهة هي التي دعمت النظّام وأصحابه إلى القول بأنّ اعجاز القرآن بالصّرفة، وهذا القول غاية الضعف.

٣. لو أنّ المعارضة كانت حاصلة لأعلنتها العرب في أنديتها وشَهرتها في مواسمها وأسواقها، ولأخذ منه أعداء الاسلام نشيداً....كيف؟ وأشعار الجاهلية ملأت كتب التاريخ وجوامع الأدب، مع أنّا لا نرى أثراً لهذه المعارضة. (خلاصة عن موقع ملتقى اهل التفسير). والكلام حول هذا البحث طويل رشيق، ولكن المجال هنا لايسع لذلك.

الجمع بين الاعجاز والصرفة:

لقد جمع بعض رجال العلم بين الاعجاز والصّرفة، نذكر منهم الجاحظ حيث يرى: لا تعارض بين الصرفة وبين اعجاز القرآن بنظمه، فالتّحدي عنده واقع بنظم القرآن، وما الصرفة إلّا تدبير ربّاني حفظ به الله تعالى كتابه المعجز.

ومنهم الاصبهانيّ الذي يقول في تفسيره: إعلم أنّ الاعجاز للقرآن ذكر من وجهين: أحدهما إعجاز متعلّق بنفسه، والثّاني بصرف الناس عن معارضته، فالأوّل إمّا يتعلق بفصاحته وبلاغته أو بمعناه.... وأمّا الاعجاز المتعلّق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضاً... وأيّ إعجاز أعظم من أن يكون كافّة البلغاء عجزت في الظاهر عن معارضته مصروفه في الباطن عنها. لقد رأينا قبل قليل أنّ الرأي بالصرفة لا يمكن الركون إليه. (ملخص عن السيوطي/ بلاتا/ خ١: ١٥٢)

براءة الشريف المرتضى

إنّ الشّريف المرتضى يرى بطلان رأي النظام وشناعته في القول بالصّرفة حيث يقول:«وانما أدّاه إلى المذاهب الباطلة الّتى تفرّد بها واستشنعت منه، تدقيقه وتغلغله». (المرتضى/١٣٨٧/ج١: ١٨٧)

و نرى ما يراه العلامة الأميني في شأن الشريف المرتضى، أنّ الاتّهامات والأكاذيب الموجّه للسيد الشريف المرتضى وأستاذه الشيخ المفيد وزملائه في الدرس، ماهي إلّا افتراءات لاتستند إلى منطق سليم ولا إلى أدلّة علميّة شافية. فانظر ماذا يقول صاحب الغدير في حق اولئك الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة: «هناك فتاوى مجرّدة من قذف سيدنا المترجم (الشريف المرتضى) بالاعتزال تارة، وبالميل اليه أخرى، وبنسبة وضع كتاب نهج البلاغة إليه طوراً من ابناء حزم وجوزي وخلّكان وكثير والذهبي، ومَن لفّ لفهم مِن المتأخّرين (جرجي زيدان والزركلي)، وبما أنّها دعاوي فارغة غير مدعومة بشاهد، وكتب سيدنا الشريف تهتف بخلافها، ومن عرفه من المتقين لا يشكّ في ذلك»، (الغدير/١٣٨٧/ ج٤: ٢٧٧).

وللاستاذ توفيق الفكيكي البغدادي محاولة بشأن الدفاع عن موقف السيد في مذهبه الصرفة، إذ استبعد أن يأخذ مثل الشريف المرتضى، وهو علم الهدى، موضعاً يبتعد عن موضع الشيعة الامامية وإجماع محقّقيهم وهو رأسهم وسيّدهم، وكان شيخه أبو عبدالله المفيد هو أستاذ الكلّ ومفخر المتكلّمين.... فنسبة القول بالصّرفة بمعناها الباطل إلى العلامة الجليل المفيد وإلى تلميذه الشريف المرتضى،لا يحتملها النظر الصحيح بعد كون هذا الاحتمال مخالفاً لعقيدة الشيعة الامامية ولأصول مبانيها. (موقع المقالات الخاصة بالدراسات الشيعية).

النتائج

بالنظر الى قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراه قُلْ فَأْتُوا بِسُورَة مثله..... بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِه (يونس/٣٧-٣٨). ليس للصرفة محل من الاعراب، بل عجزهم كان علمياً، والّا فلماذا قال تعالى: بل

كذّبوا، وسارعوا إلى التّكذيب بالقرآن، وعاندوا وكابروا..و..؟ وقوله تعالى: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا... فإن لَمْ تَفعَلُوا وَلَن تَفعَلُوا فاتّقُوا النّارَ التِّي وَقُودُها النّاسُ والحِجَارة أُعدَّت للكافِرِينَ (البقرة/ ٢٤)، فنقول:

أولاً: ان كانوا مرتابين في الأمر، فهل من المعقول صرفهم؟

ثانياً: إذا كانت المسألة للصرفة وليست للبلاغة شأن، فما هو محلّ التهديد في الآية من الإعراب؟

ثالثاً: لماذا هذا التدرّج من مثله إلى عشر سور إلى سورة؟ فان كانت للصرفة محلّ من الإعراب، امتنع الأمر من أوّل وهلة، فلا حاجة إلى هذا التدرّج.

رابعاً: جاء القرآن بالتحدّي لاظهار العجز، فلماذا لم يأت بما يقارب معنى الصرفة أو ما يعادلها من ألفاظ؟ بل قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (الحجر/٩)، فلا حاجة للصرفة أيّام الدعوة فقط، بل الاعجاز مستمرّ مدى الدهر.

خامساً: قوله تعالى: وَلَوْ نَزَّلْناه عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمينَ (الشعراء/ ١٩٨)، فما هو موقف أهل الصرفة لكلّ الأعجمين؟

سادساً: هناك فرقان إذا تأملنا المعنى والمفهوم للاعجاز والصرفة، ألف: إنّ الإعجاز هو القصور بعد مزاولة العمل وبذل الجهد، وأمّا الصرفة فمنذ البداية يظهر العجز من دون الخوض في العمل، باء: إنّ الإعجاز فيه قوّة ونشاط ومثابرة وعمل، والصرفة فيها إهمال وخمول وكسل. إذن أيهّما أفضل؟ الدعوة للإعجاز الذي يملك القوة الذاتية، أم الصّرفة التي تكتسب قوتها من الخارج.

سابعاً: إنّ الاعجاز القرآني الذاتي بمثابة جهاز المناعة للجسم، وبما أنّ القرآن الكريم باقٍ ما بقي الدّهر، فلابدّ من جهاز مناعة داخلية تمنعه من الإصابة بالأمراض، مادامت الحياة باقية.

المصادر

القرآن الكريم.

١. ابن قتيبة/عبد الله بن مسلم/ ١٩٠٢ م/ الشعر والشعراء/ ليدن: بريل.

٢. ابن منظور/ محمد بن مكرم/ ١٩٧٠م / لسان العرب / بيروت: دار لسان العرب.

٣. الأميني/ عبد الحسين / ١٣٨٧ق/ الغدير/ بيروت: دارالكتاب العربي.

٤. الجرجاني/عبد القاهر/١٤١٥ق/ دلائل الاعجاز/بيروت: دار المعرفة.

٥. خان/ وحيد الدين /١٣٩٠ق/ الاسلام يتحدى/ تعريب ظفرالدين خان/ الكويت: دار البحوث العلمية.

٦. الدامغاني/ الحسين بن محمد /١٩٧٠م/ قاموس القرآن/ بيروت: دارالعلم للملايين.

٧. الزمخشري / محمد بن عمر /١٤١٤ق / الكشّاف/ قم: مكتب الاعلام الأسلامي.

٨. الراغب الاصبهاني/ الحسين بن محمد / بلاتا / المفردات/ طهران: المكتبة المرتضوية.

٩. السيوطي /عبد الرحمن/ بلاتا / الاتقان / بيروت: دارالمعرفة.

١٠. الشريف الرضي/ محمد بن الحسين /١٣٨٧ق / نهج البلاغة / ضبط صبحي الصالح/ بيروت.

١١. الطباطبائي/ محمد حسين/ ١٣٩٣ ق / الميزا ن في تفسير القرآن/ط٣/ بيروت.

١٢. الطبرسي/ الفضل بن الحسن /١٣٧٩ ق / مجمع البيان / بيروت: دار احياء التراث العربي.

١٣. عبد الباقي / محمد فؤاد /١٣٦٤ق / المعجم المفهرس / القاهرة: دارالكتب المصرية.

المواقع الالكترونية:

١٤. الشريفى/ قائد/٢٠-٥-١٤٣٤ /خلاصة رأى العلماء فى مذهب الصرفة../ موقع ملتقى اهل التفسير.

١٥. معرفة / محمد هادى/١٢شعبان/ ١٤٣٦/ حقيقةالقول بالصرفة.../ موقع المقالات الخاصة بالدراسات الشيعية.